قضية إعجاز القرآن

عند الجاحظ

الدكتور وليد قصاب

ولدت علوم العربية حول القرآن الكريم ؛ فقد كان نزوله ـ معجزة عقليةً خالدة على محمد صلى الله عليه وسلم ـ مبعث نهضة فكرية لم يعرف العرب مثيلاً لها . وكأنما كان هذا الكتاب العظيم الجذوة التي أوقدت في النفوس روح البحث والتأمل ، وخفرتها الى النظر والتأليف . فبدأت توضع العلوم ، وتقعّد القواعد ، خدمةً للقرآن الكريم ، وإمعاناً في تفهّمه ، ومعرفة أحكامه ، ورغبةً في استكناه أسراره ودقائقه . ثمّ راحت شُعَب البحث تضرب في كلّ اتجاه ، وتنسرب إلى كل غاية . يقول ابن خلدون ـ وقد ذكر أن علم البيان حادث في الملّة بعد علم العربية واللغة ! « واعلم أن ثمرة هذا الفنّ إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن ؛ لأن إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال[1] .. »

وكان من أبرز ماتجهت إليه عناية المسلمين من شأن القرآن البحث في روعة بيانه ، وسحر بلاغته ونظمه ، بعد أن وقع عليهم التحدي ، وأقرّوا بهذه العظمة ، وهو ماعُرف بإعجاز القرآن . وكان المتكلمون ـ وعلى رأسهم المعتزلة ـ من أبرز الطوائف التي بحثت في قضية الإعجاز ؛ فقد أخذت هذه الطائفة على نفسها مهمّة الدفاع عن الإسلام ، والردّ على خصومه ومعارضيه ، وكانت هذه المهمة تقتضي منهم أن يعرفوا كتاب

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٧٦٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الله ـ الذي هو مادة هذه العقيدة ـ معرفة عميقة ، ليردّوا عنه شُبَه الخصوم من ناحية ، وليُظهروا مافيه من وجوه التفوّق والرفعة التي جعلته معجزاً خارجاً عن طَوْق البشر من جهة أخرى . وكان الجاحظ المعتزليّ واحداً من هؤلاء ، ومن أبرزهم ، وأسبقهم إلى الكلام المنظم في مسائل القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه ، وقد ترك عدداً من الكتب في هذا المجال . منها كتاب (نظم القرآن) وكتاب (آي القرآن) وكتاب (خلْق القرآن) وكتاب (المسائل في القرآن) ولكنّ هذه الكتب جميعها ـ باستثناء قطعة من كتاب (خَلْق القرآن) نُشرت ضمن رسائل الجاحظ ـ مفقودة للأسف الشديد ، ولانكاد نعرف عنها شيئاً ، ولو وصلتنا ـ أو بعض منها على الأقل ـ لتوقّعنا من أبي عثمان حديثاً ذا شأن في هذه القضية المهمة .

ولكن الجاحظ قد ترك لنا في تضاعيف مؤلفاته التي وصلتنا ـ طريقته في الاستطراد ـ عدداً لابأس به من الآراء والنظرات التي تتصل بقضية إعجاز القرآن ، وقد حاولنا لملمة شمل هذا الشتات المبعثر من آراء الجاحظ ودراسته وتقويمه للخروج بفكرة عن تصوّره للإعجاز .

القرآن حجّة للرسول : أعلن الجاحظ أن القرآن الكريم حجّة من حجج النبوة ، وهو إحدى معجزات محمد عليه السلام ، وهو معجزة بلاغية عقلية ، وهو المعجزة الرئيسية الكبرى التي وقع بها التحدي ، وإنما كان على هذه الصفة بالذات لأنّ سنة الله في الكون قد جرت أن تكون معجزات أنبيائه ـ وهي في العادة أمور تخالف السُّنن الكونية ، وتشذ عن النواميس الطبيعية ـ أموراً من جنس مااستحكم في زمانهم ، وغلب على خاصتهم ، حتى يكون ذلك أعمق في الحجة ، وأبلغ في الدليل ، وأبعد عن أن يتخذ المبطلون منه سبيلاً إلى اختداع الضعفاء . كانت معجزة موسى ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه السلام ـ إبطال السحر ؛ لأنه « كان أعجبُ الأمور عند قوم فرعون السحرَ ، ولم يكن أصحابه قطّ في زمان أشدّ استحكاماً فيه منهم في زمانه ... وكذلك زمن عيسى ـ عليه السلام ـ كان الأغلبُ على أهله ، وعلى خاصة علمائه الطبُّ ، وكانت عوامُّهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم ، فأرسله الله ـ عزّ وجلّ ـ بإحياء الموتى ؛ إذ كانت غايتهم علاجَ المرضى ، وأبرأ لهم الأكمه إذ كانت غايتهم علاجَ الرمد[٢]..». وكانت معجزة محمد ـ عليه السلام ـ في ميدان البلاغة والبيان ؛ وذلك في دهر « كان أغلبُ الأمور عليهم ، وأحسنُها عندهم ، وأجلُّها في صدروهم ، حسنَ البيان ، ونظمَ ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به ، فحين استحكمت لفهمهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم ، وفاق الناسَ خطباؤهم ؛ بعثة الله ، عزّ وجلّ ، فتحداهم بما كانوا لايشكُّون أنهم يقدرون على أكثر منه[٣] .. »

وقد راح محمد ـ عليه السلام ـ يتحدّاهم به منذ أول لحظة ، ثمّ أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، وراح يقول لقريش خاصَّة ، وللعرب عامَّة « مع مافيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدُّهاة والحُكَماء ، وأصحاب الرأي والمكيدة ، والتَّجارب والنظر في العاقبة : إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبتُ في دعوايَ ، وصدقتم في تكذيبي[٤] » ولم يكن القوم الذين ينازلهم محمد ـ عليه السلام ـ قوماً عاديين ، إنهم شكِسون خصِمون ، لايسكتون على ضيم ، ولا ينامون على مَوْجِدَة ، وقد هبّوا ينازعونه من كل سبيل « هَجَوْه من كلّ جانب ، وهاجَى أصحابُه

(٢) حجج النبوة ، ضمن رسائل الجاحظ : ٣ / ٢٧٩

(٣) المصدر السابق وصفحته

(٤) المصدر السابق : ٣ / ٢٧٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شعراءهم ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجُّوه في المواقف ، وخاصموه في المواسم ، وبادَوْه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم ، وقتلوا منه[٥] » ولكنهم ـ على ذلك كلّه ـ لم يعارضوا القرآن ، ولم يتكلّف ذلك خطيب ولا شاعر ، مع أن ذلك أهون من الحرب والقتال والإخراج من الديار . لجؤوا إلى الأشقّ العسير ، وسكتوا عما هو من بضاعتهم ، سكتوا عن المعارضة ، والكلامُ صنعتهم « وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوّتُهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا في الحيات والعقارب ، والذباب والكلاب ... وكلٌّ مادبَّ ودَرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب ، ولهم بعدُ أصنافُ النظم ، وضروب التأليف ، كالقصيد ، والرجز ، والمزدوج ، والمجانَس ، والأسجاع ، والمنثور[٦] .. »

ماالسر في سكوت العرب عن المعارضة وقد صكّ التحدي أسماعهم بإلحاح وشدة ؟ إن هذا أمر قد شغل بال الجاحظ كثيراً ، وسيشغل بال كثيرين بعد ذلك . وما كان يمكن الجاحظ المعتزليّ الجدِل أن يتجاوزه ، مع أن التاريخ يحدّثنا ـ كما أشار الجاحظ نفسه إلى ذلك ـ أنه قد جرت بعض المعارضات[٧] ، وأن العرب لم يسكتوا سكوتاً مطلقاً . ولكنْ لعل أبا عثمان كان يحسّ أنها لم تبلغ حجم التحدي ، ولم تبذل العرب فيها مابذلته في الأشقّ الأصعب ، وهو الحرب والقتال ، ولذلك راح يلتمس للأمر مسوّغاً ، وقد وقع على احتمالين اطمأن إليهما . أحدهما أن يكون القوم قد أدركوا ميزة القرآن البلاغية ، وعظمة نظمه وتأليفه ، وأنه لاقِبَل لهم به وإن جهِدُوا ، فأدركوا عجزهم « وأن مثل ذلك لايتهيَّأ لهم ،

(٥) المصدر السابق : ٣ / ٢٧٤

(٦) المصدر السابق : ٣ / ٢٧٣

(٧) انظر الإتقان : ٤ / ١١، وإعجاز القرآن : ٣٢ بعض من حاولوا المعارضة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرأوا أن الإضراب عن ذكره ، والتغافل عنه في هذا الباب ، وإن قرّعهم به أمثلُ لهم في التدبير ، وأجدر ألا يتكشّف أمرهم للجاهل والضعيف ، وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلاً[٨] » فيزعموا أنهم كانوا قادرين ـ لو شاؤوا ـ على أن يأتوا بمثله ، وهو ماحكاه تعالى عنهم بقوله : « وإذا تُتلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) [الأنفال : ٣١] ، والاحتمال الثاني أن يُطبقوا على ترك معارضته وهم يقدرون عليها ، وهو أمر مرفوض لمن كان لديه أدنى مسكة من عقل ؛ « لأنه لايجوز على العدد الكثير من العقلاء والدُّهاة والحُكماء ـ مع اختلاف عِلَلهم ، وبُعْد هِممهم ، وشدة عداوتهم ـ الإطباقُ على بذل الكثير ، وصون اليسير[٩] » أي اللجوء إلى الحرب والقتال ، وترك المعارضة والمضاهاة وهما مما يحسنون . وإذن فلم يبقَ إلا الاحتمال الأول ، وهو أن القوم قد أدركوا علوّ كعب القرآن الكريم في البلاغة والنظم ، وأحسوا بعجزهم التام عن الإتيان بمثله ، أو بسورة واحدة من مثله ، فسكتوا إيثاراً للسلامة ، وحتى لاينكشف أمرهم أمام الناس .

الجاحظ والصرفة : ولقد كان يمكن الجاحظ أن يتوقّف عند هذا الحدّ ، وألا يتورّط بعد ذلك في حديث زائف عن فكرة ظاهرة الفساد ، وهي (فكرة الصرفة) مهما كان اتجاه حديثه عنها ، ولكن روح الجدل التي طبعت المعتزلة عامة والجاحظ خاصة ، حملته على ضرب من التفلسف الفكريّ إن صحّ التعبير ، فأحسّ ـ أو وَقَرَ في نفسه أن أحداً قد يحسّ ـ أن التعليل السابق لسكوت القوم عن المعارضة لايكفي وحده لتسويغ هذا الأمر المهم ؛ فقد يكون الأدنى إلى التصور أن تكون لأهل

---

(٨) حجج النبوة : ٣ / ٢٧٥

(٩) حجج النبوة ٣ / ٢٧٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصاحة والبيان محاولات جادة في مضاهاة القرآن الكريم ، وأن يحاولوا أن يماروا فيها بعد ذلك ، ويدّعوا ـ إفكاً ـ أن لها ميزة وفضلاً ، وهذا ـ فيما نقدّر ـ فضلاً على تأثر الجاحظ بأستاذه النظّام الذي كان أول من تَحدَّث عن الصرفة ، هو الذي حمله على أن يتبنّى هو الآخر الحديث عنها ، وأن يجد فيها مَفْزِعاً يعينه على حلّ المعضلة السابقة

على أن الفرق بعيد بين مفهوم الصرفة عند النظام ومفهومها عند تلميذه الجاحظ ، فقد زعم النظام « أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صُرفوا عنه ضرباً من الصرف[١٠] » . فالإعجاز في الصرفة « أي أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ، لكنْ عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات[١١] » وعنده أن الحجة في القرآن مافيه من الإخبار عن الغيوب[١٢] .. وهو رأي فاسد واضح التهافت لم يشايع النظامَ عليه إلا طائفة من المعتزلة كعباد بن سليمان ، وهشام الضُوَطي[1] . وكان الجاحظ أوّل من نقضه ، وبيّن فساده ، وكان أحد الأسباب التي حملته على وضع كتابه (نظم القرآن) كما سنوضح بعد قليل ، ولكن الجاحظ لم يستطع أن ينجو من تأثير فكرة الصرفة الزائفة هذه ، ولعله وجد فيها ـ كما ذكرنا ـ حلاً لمعضلة سكوت القوم عن معارضة القرآن ، فإذا كانت صرفة النظام ترى أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله لولا أن صُرفوا عن ذلك بأمر خارجيّ ، فإن صرفة الجاحظ ترى أن القرآن الكريم في قمة لايبلغها أحد ، وهو معجز من ناحية نظمه وتأليفه ، وهو حجة

(١٠) إعجاز القرآن : ٦٥

(١١) الإتقان : ٤ / ٧

(١٢) فضل الاعتزال : ٧٠

[(1) كان أبو محمد بن حزم، وهو ظاهري المذهب، من القائلين بالصرفة / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للرسول - ﷺ - من هذه الناحية ، وإنما سكت العرب عن معارضته عجزاً ، وإذا كان العجز وحده لايكفي مسوّغاً للسكوت المطلق فإن ذلك يحمله على أن يرى أن الله قد صرفهم عن هذه السبيل ، وذلك لمصلحتهم . فالصرفة عنده ضرب من التدبير الإلهي ، والعناية الربانية ، جاءت لخير المسلمين ، ولدفع الشُّبَه والشكوك التي يمكن أن تنتشر بينهم من جراء معارضة لاقِبَل لهم بها ، إذ لايعدم الأمر أناساً جهالاً ، أو متشككين معاندين ، أو ضعفاء العقول أغراراً ، تنطلي عليهم بعض مزاعم أهل الزيف والضلال ، فيُلقون في أوهامهم أنهم قد عارضوا القرآن ، أو جاؤوا بسورة من مثله ، فتنتشر البلبلة والرَّيب في النفوس المريضة .

تلك هي الصرفة وغايتها عند الجاحظ . يقول : « ومثل ذلك مارَفَع من أوهام العرب ، وصرف نفوسَهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أن تحدّاهم الرسولَ بنظمه ، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلّفه ، ولو تكلّف بعضُهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهه لعظُمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألْقَى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثُر القيل والقال[١٣] » ويذكر هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من الحيوان فيقول : « وذكرنا من صَرْفِ أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن ، ولم يأتوا به مضطرباً ، ولا مُلفّقاً ، ولا مستكرَهاً ، إذ كان في ذلك لأهل الشغب متعلق[١٤] »

ويستشهد الجاحظ لرأيه هذا بما أحدثه مسيلمة حين عارض بعض آيات القرآن الكريم من تشكيك في نفوس الجهلة ، فيقول : « فقد رأيتَ

(١٣) الحيوان : ٤ / ٨٩

(١٤) الحيوان : ٦ / ٢٦٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مسيلمة وأصحاب ابن النوّاحة إنما تعلّقوا بما ألّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كلّ من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارِنه ، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له[١٥] »

ومن الواضح أن كلام الجاحظ لايخلو من تناقض واضطراب ، فها هو ذا يعترف أن بعض العرب قد حاول معارضة القرآن ، وفي هذا دليل على زيف فكرة الصرفة ، ومهما يكن من أمر فإن فكرة الصرفة على هذا النحو الذي رآه أبو عثمان لاتنفي مايتميّز به القرآن من عظمة الأسلوب ، وروعة النظم والتأليف ، ولا تنفي أنه معجز لايستطيع أحد ـ مهما أوتي من علم ـ أن يأتي بسورة من مثله ، فهي ليست بديلاً لهذا الإعجاز البياني ، ولا مناقضة له ، وإنما هي إعجاز آخر ، وإن كان المعجز عندئذٍ هو المنع أو المانع ، وقد يكون هذا سبباً في أن بعض من تحدث في قضية إعجاز القرآن قد جعل الصرفة واحداً من عناصر هذا الإعجاز[١٦] .

القرآن معجزة بيانية : أكّد الجاحظ ، أكثر من مرة ، وفي غير ما موضع ، أن القرآن الكريم قمة سامقة في البيان ، وبهذا الجانب دون غيره وقع التحدي ، فالقرآن معجزة عقلية بلاغية وفي هذا إشعارٌ بفضل البيان ، وخطر الفصاحة ، يقول الجاحظ : « ولفضل الفصاحة ، وحُسن البيان ، بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربياً ، وأنزل عليه قرآنه عربياً ، كما قال الله تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ فلم يُخَصَّ اللسانُ بالبيان ، ولم يُحمد بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام ، وحسن العبارة عند المنطق ، وحلاوةِ اللفظ

---

(١٥) الحيوان : ٤ / ٨٩

(١٦) انظر بعض الآراء حول ذلك في الإتقان : ٤ / ١٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عند السمع[١٧] .. »

ومن أجل ذلك كانت معرفة إعجاز القرآن ، وإدراك سرّ عظمته وتفوّقه ، وتميّزه من ألوان القول الأخرى جميعها لاتتأتّى إلا لمن كان خبيراً بفنّ الكلام ، مميّزاً حسنه من رديئه . إن الحكم في إعجاز القرآن هم أهل الخبرة ، أصحاب الفصاحة والبلاغة « فليس يعرف فروق النظم ، واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرَّجز ، والمخمَّس من الأسجاع ، والمزدَوِج من المنثور ، والخطب من الرسائل ... فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام ، ثم لايكتفي بذلك حتى يعرف عجزه وعجزَ أمثاله عن مثله ، وأنّ حكم البشر حكمٌ واحد في العجز الطبيعيّ ، وإنْ تفاوتوا في العجز العارض[١٨] .. » .

والقرآنُ جارٍ على أسلوب العرب وبلغتهم ، وعلى طرائقهم في الأداء والتعبير ، ومن ثَمّ كانت معرفة هذه الطرائق ، والتضلع منها أمراً لا مندوحة عنه لمن يريد أن يعرف إعجاز القرآن ، أو يتصدّى للبحث عن أسراره ودقائقه ، أو يأخذ على عاتقه مهمة تأويله وتفسيره . يقول الجاحظ : « فللعرب أمثالٌ واشتقاقات وأبنية وموضعُ كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَر ، ولها حينئذٍ دَلالات أُخر ، فمن لم يعرفها جهِل تأويل الكتاب والسُّنّة[١٩] .. » .

والجاحظ بعد ذلك يرى أن أقلّ مايُعْجَز عنه من القرآن الكريم السورةُ الواحدة ـ قصيرةً كانت أم طويلة ـ أو ماكان في مقدارها ، مصداقاً لقوله تعالى فى التحدي : ﴿ وإن كنتُم في ريبٍ ممّا نزّلنا على

(١٧) تفضيل النطق على الصمت، ضمن الرسائل : ٤ / ٢٣٧

(١٨) مقالة العثمانية، الرسائل : ٤ / ٣١

(١٩) الحيوان ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبدنا فأتُوا بسورةٍ من مثله ﴾ [البقرة ، ٢٣] وقوله : ﴿ قل فأتُوا بسورةٍ مثلِه وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ [يونس ، ٣٨] ولم يقع التحدي في الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ؛ لأن هذا في طوق البشر ، وهو جارٍ في طبائعهم ، وإنما العبرة بتشكيل الكلام لتأليف سورة واحدة تضاهي سور القرآن ، وهو مايعجز عنه البشر ، مهما أُوتوا من ضروب الفصاحة والبيان . يقول الجاحظ في كتابه حجج النبوة : « لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ـ طويلةً أو قصيرةً ـ لتبيَّن له في نظامها ومَخرجها ، وفي لفظها وطبعها ، أنه عاجز عن مثلها . ولو تحدّى بها أبلغَ العرب لظهر عجزه عنها . وليس ذلك في الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين . ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله ، وإنّا لله ، وعلى الله توكّلنا ، وربُّنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وهذا كلُّه في القرآن ، غير أنه متفرّق غير مجتمع ، ولو أراد أنطقُ الناس أن يؤلِّف من هذا الضرب سورة واحدة ـ طويلة أو قصيرة ـ على نظم القرآن وطبعه ، وتأليفه ومخرجه لما قَدَر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومَعدّ بن عدنان[٢٠] » .

إعجاز القرآن في نظمه : والعبارة السابقة التي نقلناها من كتاب حجج النبوة تضع أيدينا على سرّ إعجاز القرآن الكريم كما يراه الجاحظ ، إنه النظم العجيب ، والتأليف الخاص على نسق معين لايتأتى لأحد من الناس ، فالقرآن يستعمل لغة العرب وألفاظهم ، وقد يستعمل عبارات يتداولونها ، ولكنه يصوغها صياغة معجزة متميِّزة ، وينظمها في سياق من التأليف نظماً لايقدر على سورة من مثله أحد . والجاحظ ـ فيما

(٢٠) حجج القرآن، الرسائل : ٣ / ٢٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظن ـ أول من أشار إلى أن إعجاز القرآن في نظمه ، وأول من استعمل هذا المصطلح الذي سيشيع بعد ذلك ، وسيقلده فيه كثيرون . وقد ردّد الجاحظ أكثر من مرة أن سر الإعجاز هو النظم والتأليف ، ويبدو أن هاتين الكلمتين كانتا مترادفتين عنده ، يقول : « .... وأنه تحدّى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة ، فلم يَرُمْ ذلك أحد ولا تكلّفه ، ولا أتى ببعضه ، ولا شبيهٍ منه ، ولا ادّعى أنه قد فعل[٢١] .. » .

وقال في الحيوان : « وفي كتابنا المُنْزَل الذي يدلُّنا على أنه صدقٌ نظمه البديع الذي لايقدر على مثله العباد ، مع ماسوى ذلك من الدلائل التي جاء بها مَنْ جاء به[٢٢] ... » .

ولم يكتفِ الجاحظ بالحديث عن النظم هذا الحديث المقتضب في العبارة والعبارتين ، ولكنه وضع في ذلك كتاباً خاصاً سمّاه (نظم القرآن) ومما يؤسف له أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وليست بين أيدينا نقول عنه ، أو وصف مستفيض له في أحد المصادر . يقول الباقلاني عنه هذه العبارة المقتضبة : « وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى[٢٣] . » . ولا يُستبعد أن تكون العصبية المذهبية قد حملت الباقلاني على الحيف في حكمه على الكتاب ، إذ نجد في مقابل ذلك أبا الحسين الخياط المعتزلي يقول : « ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب

---

(٢١) المصدر السابق : ٣ / ٢٥١

(٢٢) الحيوان : ٤ / ٩٠

(٢٣) إعجاز القرآن : ٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجاحظ[٢٤] » . وقد وصف الجاحظ نفسه كتابه وصفاً مستفيضاً في فصل من صدر كتابه في خلق القرآن ، فقال مخاطباً من كتب إليه الكتاب : « وقلت : اكتب إليّ كتاباً تقصِد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى صلاح القلوب ، وإلى معتلِجات الشكوك ، وخواطر الشُّبهات ، دون الذي عليه أكثر المتكلّمين من التطويل ، ومن التعمُّق والتعقيد ، ومن تكلّف مالا يجب ، وإضاعة مايجب . وقلتَ : كن كالمعلِّم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذي يعرف الداء وسبَبه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ، ولا يسأم كثرة التَّرداد . وقلت : اجعل تجارتك التي إياها تؤمِّل ، وصناعتك التي إياها تعتمد ، إصلاحَ الفاسد ، وردَّ الشارد . وقلت : ولا بدّ من استجماع الأصول ، ومن استيفاء الفروع ، ومن حسم كلّ خاطر ، وقمع كلّ ناجم ، وصرف كلّ هاجس ، ودفع كلّ شاغل ، حتى تتمكّن من الحجّة ، وتتهنّأ بالنعمة ، وتجد رائحة الكفاية ، وتَثْلَج ببرد اليقين ، وتُفْضيَ إلى حقيقة الأمر ، إن كان لابد من عوارض العجز ، ولواحق التقصير ، فالبرّ لها أجمل ، والضرر علينا في ذلك أيسر . وقلت : ابدأ بالأقرب فالأقرب ، وبكلّ ماكان آنقَ في السمع ، وأحلى في الصدر ، وبالباب الذي منه يؤتى الريِّض المتكلِّف ، والجسور المتعجرف ، وبكلّ ماكان أكثر علماً ، وأنفذ كيداً . وسألتني بتنقيح الاستبداد ، والعجلة إلى الاعتقاد ، وصفة الأناة ومقدارها ، ومقدِّمات العلوم ومنتهاها . وزعمتَ أن من اللفظ مالا يُفهم معناه دون الإشارة ، ودون معرفة السبب والهيئة ، ودون إعادته وكرّه ، وتحريره واختياره . وقلت : فإن أنت لم تصوِّر ذلك كلَّه صورة تغني عن المشافهة ، وتكتفي بظاهرها عن المراسلة ، أحوجتنا إلى لقائك ، على بُعْد دارك ، وكثرة أشغالك ، وعلى

(٢٤) الانتصار : ١٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماتخاف من الضَّيعة ، وفساد المعيشة .

فكتبتُ لك كتاباً أجهدتُ فيه نفسي ، وبلغتُ منه أقصى مايمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرّد على كل طعّان . فلم أدع فيه مسألة لرافضيّ ، ولا لحديثيّ ، ولا لحُشْويّ ، ولا لكافر مُبادٍ ، ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النَّظّام ، ولمن نَجَمَ بعد النَّظّام ، ممن يزعم أن القرآن خَلْق ، وليس تأليفُه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دَلالة . فلما ظننتُ أني قد بلغت أقصى محبّتك ، وأتيتُ على معنى صفتك ، أتاني كتابك تذكر أنك لم تُرد الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنما أردت الاحتجاج لخَلْق القرآن، وكانت مسألتك مبهمة، ولم أك أن أُحدث لك فيها تأليفاً، فكتبت لك أشقّ الكتابين وأثقلها ، وأغمضهما معنى وأطولها[٢٥] .. » .

هذا خير وصف لكتاب (نظم القرآن) وإنما نقلت هذا الكلام بطوله ؛ لأنه يعطينا فكرة لابأس بها عن طبيعة الكتاب ومنهجه وطريقته ؛ فهو في الاحتجاج لنظم القرآن ، وروعة تأليفه ، وتميّزه الذي جعل منه حجة لاتُدفع . وهو ـ في جانبه الآخر ـ دحض لشبهات الخصوم أهل الزيغ والضلال ، وردّ على شكوكهم وريبهم ، كالروافض والحشوية والكفار والمنافقين ، والنظّام صاحب الصرفة الزائفة ومن شايعه عليها . وقد توخّى الجاحظ فيه السهولة ، وحسن الإفهام ، وعرض المسائل من أقرب طريق دون تعقيد أو فلسفة أو غموض على طريقة بعض المتكلمين ، بحيث لايحتاج قارئه إلى سؤال أو استفسار ، مشفوعاً ذلك كله بالأدلة الدامغة ، والحجج القاطعة التي تبطل رأي الخصم ، وتنير له السبيل .

وللحديث عن الإعجاز القرآني عند الجاحظ وجهان متكاملان

(٢٥) من كتابه في خلق القرآن، ضمن رسائله : ٣ / ٢٨٥ ـ ٢٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بطبيعة الحال ، يتم أحدهما الآخر . أولهما الحديث المباشر عن نظم القرآن وسموه ، ومرتبته في الرفعة والتميز ، والآخر التوقف عند ماأثاره الملاحدة والمتشككون من شبهات ومطاعن لدفعه وإبطاله ، وتوجيهه التوجيه الصحيح الذي يسقط زيف المدعين .

فأما الحديث المباشر عن نظم القرآن ، وروعة تأليفه وبلاغته فما تبقى لدينا من آراء الجاحظ المبعثرة في كتبه المتعددة نرى أنها تعالج المسائل التالية :

أ ـ اللفظ القرآنيّ : لاحظ الجاحظ وهو يتحدّث عن بعض أوجه النظم القرآني مايتمتع به اللفظ في كتاب الله من خصائص بلاغية ممتازة . وعلى رأس هذه الخصائص جميعاً دقة اختيار الألفاظ ، وحسن انتقائها ، وإيراد ماهو أحقّ بالمعنى ، وأجدر بالاستعمال ، فقد يشترك لفظان أو أكثر في التعبير عن معنى واحد ، ولكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة ، وأدخل في المعنى ، وأقدر على التعبير ، وكأن الجاحظ يشير إلى أن الكلمة المرادفة لأخرى لايمكن أن تقوم مقامها ، وذلك لوجود فروق دقيقة بينهما في المعنى ، وهي فروق تغيب عن العامة ، وكثير من الخاصة ، ولكن القرآن يلاحظها بدقة متناهية ، ويوقع كلاً منها في مكانه الملائم بحيث لايمكن أن يُستبدل بها غيرُها ، يقول في البيان والتبيين : « قد يستخفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها . ألا ترى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لايذكرون السَّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظ القرآن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الـذي عليـه نـزل أنـه إذا ذكر الأبصـار لم يقـل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقـلَ الأَرَضِين . ألا تراه لايجمـع الأرض أرَضين ، ولا السمـع أسماعاً . والجـاري على أفواه العـامـة غير ذلـك ، لايتفقّـدون من الألفـاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال . وقد زعم بعض القُرّاء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج[٢٦] .. » وهكذا يشير الجاحظ إلى فكرة طريفـة سوف يتوسع اللغويـون في طرحهـا عنـد الحـديث عن الترادف ، وهي أن مـايُطلـق عليـه اسم المترادف من الألفـاظ لايمكن أن تكون دلالته واحدة ، وإنما هنالك فروق دقيقة بينهـا لاتغيب عن النظم القرآني كما ذكرنا ، ولكنها قد تغيب كثيراً عن العامة « التي ربما استخفّتْ أقلّ اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ماهو أقل في أصل اللغـة استعمالاً وتـدع ماهو أظهر وأكثر[٢٧] » .

وفي ألفاظ القرآن الكريم دقة وإيجاز ، فـاللفـظ القليل يجمع المعـاني الكثيرة ، وهو غنيّ بالإيحاء ، يؤدي مالا تؤديه العبـارات الطويلـة . من ذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُحِلّ لكمُ الطيّبـاتُ ومـا علّمْتُم من الجوارحِ مكلّبينَ ﴾ [المائدة : ٤] فانظر إلى الدقة والإيجاز في قولـه : (مكلّبين) فقـد « اشتـقّ لكل صـائـد وجـارح كاسب من بـازٍ ، وصقرٍ ، وعُقـاب ، وفهد ، وشـاهينٍ ، وزرَّقٍ ، ويؤيؤ ، وبـاشق ، وعَنَـاق الأرض ، من اسم الكلب . وهـذا يـدل على أنـه أعمُّهـا نفعـاً ، وأبعـدهـا صيتـاً ، وأنبههـا ذكراً[٢٨] .. »

ومن ذلك لفـظ (طيبـات) في قولـه تعـالى : ﴿ كُلُوا من طيبـاتِ مـارَزَقْنَـاكُمْ ﴾ وقولـه : ﴿ لاتُحَرّمُوا طيبـاتِ مـاأحلّ اللهُ لكم ﴾ يقـول :

(٢٦) البيان والتبيين : ١ / ٢٠

(٢٧) المصدر السابق وصفحته .

(٢٨) الحيوان : ٢ / ١٨٧ ـ ١٨٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وقوله تعالى (طيبات) تحتمل وجوهاً كثيرة ، يقولون : هذا ماء طيب ، يريدون العذوبة ... ويقولون : فم طيّب الريح ، وكذلك البُرّ ، يريدون أنه سليم من النَّتْن ... ويقولون : حلال طيّب ، وهذا لايحلّ لك ، ولا يطيب لك ، وقد طاب لك : أي حلّ لك ... قال طويسٌ المغني لبعض ولد عثمان بن عفان : لقد شهدت زِفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيّب . يريد الطهارة ... وقد يخلو الرجل بالمرأة فيقول : وجدتها طيبة ، يريد طيبة الكَوْم لذيذة نفس الوطء . وإذا قالوا : فلان طيب الخُلُق ، فإنما يريدون الظَّرْف والمِلْح[٢٩] ... » وأورد الجاحظ معاني أخرى كثيرة تحملها لفظة (طيبات) مما يدل على حسن اختيار النظم القرآني لها ، لما تحمل من وفرة الدلالات .

وفي قوله تعالى يحكي قول بنت شعيب في موسى بن عمران : ﴿ يـاأبتِ استأجِرْهُ إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ جمع جميع مايحتاج إليه في الكلمتين[٣٠] .

ولاحظ دقة الألفاظ القرآنية وإيجازها في قوله عزّ وجل : ﴿ والأرض بعد ذلك دَحَاهَا ، أخرجَ منها ماءَها ومرعَاها ﴾ ، « ... فجمع بقوله : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ النجم والشجر ، والمِلحْ واليقطين ، والبقل والعشب . فذكر مايقوم على ساق وما يتفنَّن وما يتسطَّح ، وكل ذلك مرعى . ثم قال على النسق : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كلّه ؛ لأن الملح لايكون إلا بالماء ، ولا تكون النار إلا من الشجر[٣١] .. » .

---

(٢٩) الحيوان : ٤ / ٥٧ ـ ٥٨

(٣٠) من كتاب الوكلاء، ضمن الرسائل : ٤ / ١٠١

(٣١) البيان والتبيين : ٣ / ٣٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحدّث عن هذه الميزة أيضاً في قوله تعالى يصف خمر أهل الجنة : ﴿ لايُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون ﴾ فهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا[٣٢] ، وكأنه تبارك وتعالى قال : لاسُكر فيها ولا خُمار[٣٣] .

وقال تعالى يذكر فاكهة أهل الجنة : ﴿ لامقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾ فجمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني[٣٤] .

ومن الواضح من هذه الأمثلة التي سقنا نماذج منها أنها جميعاً مما أطلق عليه البلاغيون بعد ذلك اسم (إيجاز القِصَر) وهو التعبير عن المعنى الكثير في اللفظ اليسير ، ويبدو أن الجاحظ قد وضع كتاباً جمع فيه آياً من القرآن الكريم اتسمت بالإيجاز ، وأراد أن يوضح الفرق بين إيجاز النظم القرآني والإيجاز الذي يرد في كلام البشر . يقول : « وقد ذكرنا أبياتاً تُضاف إلى الإيجاز وقِلّة الفُضول . ولي كتابٌ جمعت فيه آياً من القرآن ؛ لتعرف بها فصل مابين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفُضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز ، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول[٣٥] ... » . وما ندري على وجه التحديد أيّ كتاب هذا الذي يشير إليه الجاحظ ؟ أهو كتاب (نظم القرآن) نفسه ، أم هو كتاب آخر ؟

وإذا كان الإيجاز سمة بارزة في التعبير القرآني فإن هذا لايعني أنه يطّرد دائماً ، وذلك لأنه يرتبط بقاعدة مهمة وهي (مراعاة مقتضى الحال) وما يجب في كلّ مقام من مقال . إن اللجوء إلى الإيجاز أو غيره

---

(٣٢) الحيوان : ٣ / ٨٦

(٣٣) من كتابه في المعلمين، ضمن رسائله : ٣ / ٤٣

(٣٤) الحيوان : ٣ / ٨٦

(٣٥) الحيوان : ٣ / ٨٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أساليب القول تستدعيه حالة المخاطبين ، والمقام الذي يُنشأ فيه الكلام ، ولذلك يخرج النظم القرآني أحياناً إلى الإطناب ، ويخرج في أحيان أخرى إلى الإيجاز على حسب نوع المخاطب ، فقد لاحظ الجاحظ أن القرآن الكريم إذا اتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء أوجز واقتضب لبلاغتهم وسرعة فهمهم ، وإذا اتّجه إلى اليهود أو حكى عنهم أطال وأسهب يقول : « ورأينا الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل ، أو حكى عنهم ، جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام[٣٦] .. » .

وأشار إلى ارتباط التعبير القرآني بمراعاة مقتضى الحال من حيث إيجازه وإطنابه عندما تحدّث عما ورد في القرآن الكريم من الترداد والتكرار في القصص فقال : « وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدّ يُنْتَهَى إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومَن يحضره من العوامّ والخواصّ . وقد رأينا الله عزّ وجلّ ـ ردّد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب ، وإبراهيمَ ولوطٍ ، وعاد وثمودَ . وكذلك ذكرَ الجنة والنار وأمور كثيرة ؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبيّ غافل ، أو معاندٌ مشغولٌ الفكر ، ساهي القلب[٣٧] .. » .

ومن مزايا التعبير القرآني التي لاحظها الجاحظ أن الألفاظ يُراعى فيها عند التأليف أن يكون بينها نوع من التقارب والتجانس ، وأن توحّد بينها صلة ما ، فتبدو عندئذٍ مؤتلفة مؤتنسة ، لاتنافر بينها ولا تباعد ولا جفوة ، فبعض ألفاظ القرآن تأتي متصاحبة لاتكاد تفترق

---

(٣٦) الحيوان : ١ / ٩٤

(٣٧) البيان والتبيين : ١ / ١٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« مثل الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس[٣٨] » . وقد سمّى البلاغيون هذا فيما بعد باسم (مراعاة النظير)

ب ـ **القرآن نظم متفرد** : والقرآن أسلوب فريد في النظم ، ونمط متميّز من التأليف ، لم تعرفه العرب من قبل ، ولم يكن لها عهد بهذا الضرب من الكلام ، وهم أهل الفصاحة والبيان ، وفرسان البلاغة والقول ، فهو خارج على جنس ماعرفت من ضروب الشعر والنثر ، والخطب والأمثال . وقد أشار الجاحظ إلى هذا الضرب من وجوه النظم عندما رأى ناساً يرون مافي القرآن من إيقاع ووزن فيحسبون ذلك شعراً ، أو يرون التزامه في بعض المواطن برويّ واحد ، أو فاصلة متشابهة ، فيهيأ لهم أن بينه وبين السجع صلة ، قد نفى الجاحظ أن يكون القرآن على أي ضرب من ضروب الكلام التي عرفها العرب ، واصطلحوا عليها في كلامهم ، يقول : « ولابدّ من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام ، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفّى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج[٣٩] .. » .

ولكن في القرآن الكريم آيات جاءت على بعض أوزان الشعر المعروفة عند العرب ، وقد جعل هذا بعض الجهلة يحسبها شعراً ، ويأخذ في الطعن على القرآن زاعماً أنه شعر ، فينفي الجاحظ ذلك بشدة ، ويبيّن أن للشعر حدوداً معينة ، ومقداراً خاصاً ، فليس أيّ كلام اتفق له وزن خاص شعراً ؛ لأن الناس ـ في أثناء حديثهم العادي ـ قد يخرج شيء من

(٣٨) البيان والتبيين : ١ / ٢١

(٣٩) البيان والتبيين : ١ / ٢٨٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلامهم ـ دون اتفاق أو عمد ـ على وزن معين ، فهل يسمّى ذلك شعراً ؟ وهل يسمّى أصحابه شعراء ؟ أثار الجاحظ هذه القضية من خلال تعرض بعضهم لقوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ طاعناً فيه ، زاعماً أنه شعر ، لأنه في تقدير (مستفعلن مفاعلن) فيقول الجاحظ عندئذٍ مبيّناً حدّ الشعر ، دافعاً أي صلة بينه وبين القرآن الكريم : « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً ، ومستفعلن مفاعِلن ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ، ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات . وكيف يكون هذا شعراً وصاحبُه لم يقصد إلى الشّعر ؟ ومثلُ هذا المقدار من الوزن قد يتهيّأ في جميع الكلام ، وإذا جاء المقدار الذي يُعلم أنه من نتاج الشّعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً[٤٠] .. »

وهكذا يعلن الجاحظ تفرّد القرآن بنظم معين لم تعرفه العرب ، وهو في هذا يذكرنا بقول الوليد بن المغيرة من قبل عندما استمع إلى القرآن ، وسألته قريش عنه فقال : « والله مافيكم رجلٌ أعلمُ بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه[٤١] » .

ولقد تبنّى الباقلاني بعد ذلك فكرة الجاحظ هذه ، وجعل تفرّد القرآن بنظم عجيب معين خالف فيه مألوف العرب في كلامهم أمراً رئيسياً في الإعجاز ، فقال : إن « نظم القرآن ـ على تصرف وجوهه ،

(٤٠) المصدر السابق : ١ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩

(٤١) الإتقان : ٤ / ٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتباين مذاهبه ـ خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختصّ به ، ويتميّز في تصرفه عن أساليب الكلام[٤٢] .. » ، ثم يستفيض الباقلاني في شرح الفكرة مستفيداً من ملاحظات الجاحظ العابرة ، كما التقط الباقلاني حديث الجاحظ عن حدّ الشعر ، وإثارته لمسألة الشعر في القرآن ، فتوسّع في ذلك ، وعقد فصلاً خاصاً (في نفي الشعر من القرآن[٤٣]) وكأن الأمر محتاج إلى دليل .

ج ـ **الصور البلاغية في القرآن** : عرض الجاحظ لكثير من الآيات القرآنية ، ولاسيا في كتاب الحيوان ، فبيَّن ماشتملت عليه من ألوان البلاغة ، وشرح وجه الجمال فيها . وهو ـ وإن لم يفرّق بين ألوان البلاغة المختلفة ، ولم تتمايز ألوان البيان عنده من ألوان البديع أو المعاني كما سيفعل البلاغيون المتأخرون ـ كان متنبّهاً إلى الفروق الدقيقة الموجودة بينها ، وكان على إدراك تام بمدلول كلّ منها . كانت ألوان البلاغة تتداخل عنده ، وقد يطلق عليها جميعها بياناً ، أو بديعاً ، أو براعة ، أو فصاحة ، أو غير ذلك ، ولكنه ـ خارج نطاق المصطلحات التي لم تستقر على أيدي البلاغيين إلا في زمن متأخر ـ كان مدركاً لمضون كلٍّ منها ، وما تعبّر عنه إدراكاً واضحاً متميّزاً .

عرض لبعض التشبيهات التي وقعت في آي الذكر الحكيم ، فأوضح المشبّه والمشبه به ، وكشف عن الصلة أو وجه الشبه بينهما ، وبيَّن دلالته وجماله . توقف طويلاً عند قوله تعالى ﴿ إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيمِ ● طلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطينِ ﴾ الذي طعن فيه بعض

(٤٢) إعجاز القرآن : ٣٥

(٤٣) المصدر السابق : ٥١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتشككين بسبب خفاء المشبه به فيما يزعمون ؛ فإن الناس لم يروا شيطاناً قط ، ولم يشاهدوه ، حتى يُشَبَّه به . وقد ردّ أبو عبيدة على ذلك من قبل رداً لغوياً بأن ذكر أن هذا الاستعمال وارد في كلام العرب ، وهو من أساليبهم في التعبير ، وهو على نحو قول امرىء القيس :

ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ

وكانت هذه الآية ، وما أثير حول التشبيه فيها سبباً في وضع أبي عبيدة لكتابه (مجاز القرآن) ولكن الجاحظ لم يعجبه هذا التفسير اللغوي ، وذهب يفصّل القول في وجه الشبه ، مبيّناً سر جماله ، فأوضح أنه منتزع من غير ماهو مدرك بالحسّ اعتماداً على ثبوته في الإدراك ، عن طرق العرف والعادة ، وتناقل الناس له ، فالشيطان عند الناس - وإن لم يروه - مرتبط بالقبح والاستهجان ، وعلى صورته في نفوسهم بُني التشبيه - يقول : « وليس أن الناس رأوا شيطاناً قطّ على صورة ، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباحَ جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهته ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضربَ المثل في ذلك ؛ رجع بالإيحاش والتّنفير ، وبالإخافة والتفزيع ، إلى ماقد جعله الله في طباع الأوّلين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم . وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن[٤٤] .. » .

ولعل قول بعض المفسرين إن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن نوع من محاولة رد الشبهة عن التشبيه ؛ لأن المشبه به عندئذٍ أمر مدرك معلوم ، ولكن الجاحظ يرفض ذلك . ولا يعتدّ به . وقد عرض لهذه الآية في موضع آخر من الحيوان ، ففصّل القول في دلالة التشبيه ،

(٤٤) الحيوان : ٤ / ٣٩ - ٤٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأوضح جوانب أخرى من جماله ، وكرّر مرة ثانية رفضه لتفسير أهل الظاهر ، وحملهم رؤوس الشياطين على غير محملها الحقيقي ، يقول : « ... فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرةٍ تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه . والمتكلمون لايعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ماعنَى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم ، من فَسَقَة الجن ومَرَدَتهم . فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهّمه ، ولا وُصفت لنا صورته في كتاب ناطق ، أو خبر صادق . ومخرجُ الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفزيع منها . وعلى أنه لو كان شيءٌ أبلغَ في الزجر من ذلك لذكره . فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لايفزعون إلا من شيء هائل شنيع ، قد عاينوه ، أو صوّره لهم واصف صدوقُ اللسان ، بليغٌ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صوّرها لنا صادق ... قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ، ولا صوّر رؤوسَها لنا صادق بيده ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين : أحدهما أن يقولوا : لهو أقبحُ من الشيطان ، والوجه الآخر أن يُسمّى الجميل شيطاناً على جهة التطيُّر له ، كما تسمى الفرسُ الكريمة شوهاء ... ففي إجماع المسلمين والعرب وكلٌّ من لقيناه على ضرب المثل بقُبح الشيطان دليلٌ على أنه في الحقيقة أقبح من كلّ قبيح . والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت[٤٥] » وهكذا يصرّ الجاحظ على رفض المدلولات المادية للتشبيه على نحو ماأراده أهل الظاهر ، لأنها لاتثير في الخيال ماتثيره كلمة (الشيطان) من الخوف والرعب ، وكأن مهمة التشبيه القرآني إثارة الخيال عن طريق استدعاء تلك الصورة المخيفة ،

(٤٥) الحيوان : ٦ / ٢١١ ـ ٢١٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي صورة الشيطان . وقد عُرف هذا النوع من التشبيه ، عند البلاغيين المتأخرين فيما بعد ، باسم التشبيه الوهمي ، وهو من التشبيه العقلي(٤٦) .

وتعرض للتشبيه في قوله تعالى : ﴿ واتلُ عليهم نبأَ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ منها فأَتْبَعَه الشيطانُ فكان من الغاوين ● ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخْلَدَ إلى الأرضِ واتَّبع هواه فمَثَلُه كمثلِ الكلبِ إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآياتِنا ﴾ وقد طعن في هذا التشبيه أيضاً بعض المعترضين ، وزعموا أنه ليس بين المشبه والمشبه به صلة واضحة ، أو علاقة قوية ، وأن هذا المثل لايجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام ؛ لأنه قال : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ فما يُشَبَّه حالُ من أعطي شيئاً فلم يقبله ـ ولم يذكر غير ذلك من حال المشبه ، غير عرض الآيات عليهم ، وعدم قبولهم إياها ، بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولّى ذاهباً ، وإن تركته شدّ عليك ونبح . مع أن قوله : يلهث ، لم يقع في موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد ، وحرّ شديد ، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر .. وفي دفاع الجاحظ عن هذا التشبيه بيّن قصر نظر المعترض ؛ لأنه لم يلمح من حال المشبه إلا صورة عرض الآيات عليهم ، ورفضهم لها ، مع أننا أمام صورة فنية أعمق من ذلك ، وأبعد دلالة ؛ فقد شبّه القرآن الكريم الذي أُعطي الآيات بالكلب في حالتين مختلفتين ، أو من وجهين اثنين : فهو من حيث حرصه على الآيات ، وطلبه لها ، كالكلب في حرصه على مايريد ، وطلبه له ، إذ يبذل كلّ مايستطيع في سبيل ذلك ، وهذا الذي أوتي الآيات فرفضها ، ولم يذعن

(٤٦) انظر الإيضاح : ٢٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لها ، بعد طول حرص ، وكثرة جهد ، هو كذلك ـ من الناحية الأخرى ـ كالكلب الذي راح ينبح بعد طردك له. يقول: «فليس ببعيد أن يشبّه الذي آوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ؛ فإن الكلب يُعطي الجدّ والجُهد من نفسه في كلّ حالة من الحالات . وشبّه رفضه وقذفه لها من يديه ، وردّه لها ، بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطْرادك له . وواجبٌ أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها ، والحرص عليها . والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النُّباح مقبلاً إليك ، ومدبراً عنك ، لهث واعتراه مايعتريه عند التعب والعطش[٤٧] .. »

وقد يسمي الجاحظ التشبيه مثلاً . وقد أشار في الحيوان إلى عدد من أمثال القرآن الكريم فبيَّن دلالتها ، وتحدّث عن وجه الشبه فيها . ذكر الله البعوضة في قوله : ﴿ إن الله لايستحيي أن يضربَ مثلاً مابعوضة فما فوقها ﴾ فقلّلها وحقّرها ، وضرب المثل بها في الحقارة . وضرب مثلاً على عجز الإنسان وضعفه بقوله تعالى : ﴿ ياأيها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالبُ والمطلوبُ ﴾ فقد قرّع الطالب في هذا الموضع بإنكاره وضعفه ، إذ عجز ضعفه عن ضعف مطلوب لاشيء أضعف منه ، وهو الذباب . وضرب مثلاً على الوهن والضعف بالعنكبوت في قوله تعالى : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت ﴾ فدلّ ـ بوهن بيته ـ على وهن خَلْقه ، فكان هذا القول دليلاً على التصغير والتقليل . وضرب المثل بالكلب في قوله :

(٤٧) الحيوان : ٢ / ١٦ ـ ١١٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ فمثلُه كمثل الكلب إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْه يلهث ﴾ فكان في ذلك دليل على ذم طباعه ، والإخبار عن تسرّعه وبذائه ، وعن جهلِه في تدبيره ، وتركه وأخذه . وضرب مثلاً بالذَّرّة في قوله : ﴿ فمن يعملْ مثقال ذَرّة خيراً يَرَهُ ومنْ يعملْ مثقالَ ذَرّةٍ شراً يَرَهُ ﴾ من حيث أنه من الغايات في الصغر والقلة ، وفي خفة الوزن ، وقلة الرجحان . وذكر الحمار فقال : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ فجعله مثلاً في الغفلة والجهل ، وفي قلة المعرفة ، وغلظ الطبيعة . وذكر القردة والخنازير في قوله : ﴿ وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ ﴾ فجعلها مثلاً في القبح والتشويه ، ونذالة النفس[٤٨] ..

وتوقف الجاحظ عند المجاز في القرآن الكريم، فأشار إلى عدد من الأمثلة ، وكان يطلقه أحياناً على جميع الصور البيانية إذا لم يذكر الاستعارة أو التشبيه ، وقد أوضح أكثر من مرة أن النظم القرآني جارٍ على طرائق العرب وأساليبهم في استعمال مختلف الصور البيانية ، لأنه خاطبهم بما يفهمون . أشار إلى ماورد في القرآن من المجاز والتشبيه بالأكل ؛ فالعرب تقول : النار تأكل وتشرب على المثل ، وعلى الاشتقاق ، وعلى التشبيه ؛ لأن النار في الحقيقة لاتأكل ولا تشرب . وقد قال تعالى : ﴿ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا أن لانؤمنَ لرسولٍ حتى يأتيَنا بقربانٍ تأكُلُهُ النارُ ﴾ فاستعمل مجاز الأكل في النار . يقول الجاحظ : « علمنا أن الله ـ عزّ وجلّ ـ إنما كلّمهم بلغتهم[٤٩] »

---

(٤٨) الحيوان : ٤ / ٣٧ ـ ٣٨، وانظر أمثلة أخرى في الحيوان : ٢ / ٢٥٥، ٣ / ٣٨٣، ٤ / ٣٩٠ وغيرها .

(٤٩) الحيوان : ٥ / ٢٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن مجاز الأكل أيضاً قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً ﴾ ، وقوله : ﴿ أكّالونَ للسُّحْتِ ﴾ وقد لاحظ أن المجاز يكتسب في العادة دلالة معينة ، فأكل المال تعني أخذه بغير حق ، ولذلك يطلق الأكل « وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدوابّ ، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل » ومثله قوله تعالى : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ فهذا مجاز آخر[٥٠] ..

وتحدث عن مجاز الذوق ، فبيّن أن من أساليب العرب قول الرجل ـ إذا بالغ في عقوبة عبده : ذقْ ، وكيف ذقته ؟ وكيف وجدت طعمه ؟ وعليه قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ ذُقْ إنك أنتَ العزيزُ الكريمُ[٥١] ﴾ .

وكما يجري في كلام العرب أن يقولوا : ذقتَ ماليس بطعم ؛ قالوا : طعِمْت ، لغير الطعام . قال العرجي :

وإن شئت حرَّمتُ النساءَ سواكُمُ وإنْ شئت لم أطعمْ نُقَاخاً ولا بَرْدَا

وعليه قوله تعالى : ﴿ إن اللهَ مُبْتَلِيْكُمْ بنَهَرٍ فمنْ شربَ منه فليسَ مني ومنْ لم يطْعَمْهُ فإنه مني ﴾ يريد : لم يذق طعمه[٥٢] .

وتوقف الجاحظ عند بعض مجازات القرآن الكريم يردّ عنها شبهاً أثارها بعض المتشككين والملحدين ، لجهلهم بطرائق العرب ـ الذين نزل القرآن بلسانهم ـ في التعبير ، وعدم بصرهم « بوجوه اللغة ، وتوسع العرب في لغتها ، وفهم بعضها عن بعض ، بالإشارة والوحي[٥٣] .. » ومن ذلك طعنهم في قوله تعالى في النحل : ﴿ يخرج من بطونها شرابٌ ﴾ وعندهم أن الشمع « شيء تنقله النحل ، مما يسقط على الشجر ، فتبني بيوت

(٥٠) الحيوان : ٥ / ٢٥

(٥١) الحيوان : ٥ / ٢٨

(٥٢) الحيوان : ٥ / ٣٢

(٥٣) الحيوان : ٥ / ٤٢٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العسل منه ، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها .. إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيّ ، وكذلك العسل أخفى وأقل . فليس العسل بقَيْء ولا رجْع ، ولا دَخَلَ للنحلة في بطن قط[٥٤] .. » ويوضح الجاحظ أن القرآن قد سمّى العسل شراباً ، وهو ليس بشراب ، على المجاز ؛ لأنه « شيء يُحوّل بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً ، فسمّاه ـ كما ترى ـ شراباً ، إذ كان يجيء منه الشراب . وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماءُ بأرضِ قومٍ رعَيْنَاهُ وإنْ كانُوا غِضَابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط . ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللغة على هذا المركب ، لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً . وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تِهامة ، وهذيلاً ، وضواحيَ كِنانة ، وهؤلاء أصحابُ العسل ، والأعراب أعرف بكل ضَمْغة سائلة ، وعَسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ، أو طعن عليه من هذه الحجة[٥٥] .. » .

وتحدّث الجاحظ عن الاستعارة في بعض الآيات ، فبيّن وجه الشبه فيها ، ولاحظ في تعريفها أنها قيام كلمة مقام أخرى لوجود علاقة أو صلة بينهما ، أو تسمية الشيء بغير اسمه لوجود هذه العلاقة . ففي قوله تعالى : ﴿ وإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى لايهتَدُوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايُبصرون ﴾ وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالُوا سمِعْنا وهُم لايسمعونَ ﴾ وقوله : ﴿ إنّ شرّ الدوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لايعقلونَ ﴾ يقول الجاحظ : « ولو كانوا صماً بُكماً وكانوا هم لايعقلون لما

(٥٤) الحيوان ٥ / ٤٢٣ ـ ٤٢٤

(٥٥) الحيوان : ٥ / ٤٢٥ ـ ٤٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عيّرهم بذلك ، كما لم يعيِّر مَنْ خلقه معتوهاً كيف لم يعقل ، ومَنْ خلقه أعمى كيف لم يبصر ، وكما لم يَلُم الدوابّ ، ولم يعاقب السِّباع . ولكنه سمّى البصير المتعاميَ أعمى ، والسميع المتصامِم أصمّ ، والعاقل المتجاهل جاهلاً[٥٦] .. » .

كما توقف عند قوله تعالى : ﴿ فإذا هي حيةٌ تسعى ﴾ رادّاً على من زعم أن السعي لايكون إلا بالأرجل ، موضحاً أيضاً أن هذا جهلٌ بطرائق العرب في التعبير ، فهذا من باب التشبيه والبدل ، فهو كقول القائل : ماهو إلا كأنه حيّة ، أو كأن مشيته مشية حيّة ، « ومن جعل للحيات مشياً من الشعراء أكثر من أن نقف عليهم . ولو كانوا لايسمون انسيابها وانسياحها مشياً وسعياً لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل ، وأن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه ، فمن عادة العرب أن تشبِّه به في حالات كثيرة . وقال الله تعالى : ﴿ هذا نُزُلُهم يومَ الدين ﴾ والعذابُ لايكون نُزُلاً ، ولكنه أجراه مُجرى كلامهم ، كقول حاتم حين أمروه بفَصْد بعير ، وطَعَنَه في سنامه ، وقال : هذا فَصْدُه . وقال الآخر :

فقلتُ يـــــاعمرو اطْعِمَنّي تَمْرَاً فكان تمري كَهْرَةً وَزَبْرا[٥٧]..»

وعلى تأويل قوله : (هذا نُزُلُهم يومَ الدِّينِ) قوله تعالى : ﴿ جهنَّم يصلَوْنَها فبئسَ المهادُ ﴾ وقوله : ﴿ حتى إذا جاؤوها فُتِحتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم رسلٌ منكم يتلُون عليكم آياتِ ربِّكم ﴾ « فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ، كما جعل في الجنة خزائن وجعل لها خزنة . ولو أن جهنم فُتِحت أبوابها ، ونُحّي عنها الخزنة ، ثم قيل لكلّ لصّ في الأرض ، ولكلّ خائن في الأرض : دونَك ، فقد أُبيحت لك لما

(٥٦) الحيوان : ٤ / ٢١١

(٥٧) الحيوان : ٤ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دنا منها ، وقد جُعل لها خزائنُ وخَزَنة ، وإنما هذا على مثال ماذكرنا . وهذا كثير في كلام العرب[٥٨] » .

وأورد في البيان والتبيين أمثلة أخرى على الاستعارة ، وشرحها مبيّناً دلالة التشبيه فيها . علّق على قوله تعالى : ﴿ هذا نُزُلُهم يومَ الدين ﴾ فذكر أن « العذاب لايكون نزلاً ، ولكن لما قام العذابُ لهم في موضع النعيم لغيرهم سمّي باسمه .. وقال الله ـ عزّ وجلّ : ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشيّاً ﴾ ، وليس في الجنة بكرة ولا عشيّ ، ولكن على مقدار البُكَر والعشيّات . وعلى هذا قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وقالَ الذينَ في النار لخزنةِ جهنّم ﴾ والخزنة : الحفظة ، وجهنم لايضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولَها إنسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سمّيت به[٥٩] .. »

ردّ الشُّبَه عن النظم القرآني : توقف الجاحظ في كتاب الحيوان عند عدد من الآيات القرآنية التي طعن فيها بعض الملاحدة والمتشككين ، وأثاروا من حولها بعض الشُّبه في زعمهم ، فراح يردّ عنها ، ويبيّن إحكام النظم القرآني وتميّزه ، بحيث لايستطيع أحد أن يجد فيه مطعناً . وقد أوضح الجاحظ أكثر من مرة ـ كما مرّ معنا في ثنايا الكلام المتقدم ـ أن طعن الطاعنين مرده إلى قلة المعرفة بأساليب التعبير العربي ، وضعف البصر بطرائق القوم ، وأنماط الكلام ، فمن لم يُؤتَ الخبرة بالبيان ، والقدرة على التمييز ، لم تستبن له روعة النظم القرآني ، وخفي عليه الكثير من أسراره ودقائقه وجماله .

وأشار الجاحظ إلى فضل المتكلمين ـ ولاسيا المعتزلة ـ في الباب ،

---

(٥٨) الحيوان : ٤ / ٢٧٨

(٥٩) البيان والتبيين : ١ / ١٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأشاد بمقدرتهم على التصدي للملاحدة والمتشككين ، وذبّ التهم التي يوجهونها للقرآن الكريم فقال : « وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث ، وأي ضرب منها يكون مردوداً ، وأيّ ضرب منها يكون متأوّلاً ... ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ ، واختُطِفَتْ واستُرِقتْ ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلّمون[٦٠] .. »

وقد مرّ معنا في سياق الكلام المتقدم نماذجُ من دفاع الجاحظ عن بيان القرآن الكريم ، وإيضاح جمال الصور البيانية التي خفي مدلولها على الطاعنين ، وفي الحيوان أمثلة كثيرة . توقف الجاحظ عند قوله تعالى : ﴿ واللهُ خلقَ كلَّ دابةٍ من ماء فمنهم من يمشي على بطنِه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم منْ يمشي على أربعٍ ، يخلُقُ اللهُ مايشاء ﴾ الذي طعن فيه بعضهم ، لأن جميع الحيوان عندهم أربعة أقسام : شيء يطير ، وشيء يمشي ، وشيء يعوم ، وشيء ينساح « وقد وَضَع الكلامَ على قسمة أجناس الحيوان ، وعلى تصنيف ضروب الخلق ، ثم قصّر عن الشيء الذي وَضَع عليه كلامه ، فلم يذكر مايطير وما يعوم ، ثم جعل ماينساح ـ مثل الحيات والديدان ـ مما يمشي ، والمشي لايكون إلا برجل .. » وقد ردّ الجاحظ عليهم مبيّناً عدم معرفتهم بطبيعة التعبير القرآني ؛ فالكلام غير قائم على استقصاء أصناف القوائم . فالقرآن يقول : ﴿ وَقُودُها الناسُ والحجارةُ ﴾ فيترك ذكر الشياطين مع أنهم من وقودها . ويقول : ﴿ خلقكم من ترابٍ ثمّ من نُطفةٍ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ فيترك الاستقصاء أيضاً ، لأنه أخرج من هذا العموم عيسى بن مريم ، وقصد في مخرج هذا الكلام إلى جميع ولد آدم . وقال : ﴿ هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدّهر لم يكنْ شيئاً مذكوراً ﴾ فأدخل فيها آدم

(٦٠) الحيوان : ٤ / ٢٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحواء ، ثم قال على صلة الكلام : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاجٍ نبتليْهِ ﴾ فأخرج منها آدم وحواء وعيسى بن مريم « وحَسُن ذلك إذ كان الكلام لم يُوضع على جميع ماتعرفه النفوس من جهة استقصاء اللفظ[٦١] .. » وردّ على زعمهم بأن المشي لايكون إلا بالأرجل بأن أوضح أن ذلك محمول على التشبيه والبدل ، وقد توقفنا عند ذلك قبل قليل .

وأشار إلى طعن الطاعنين في قوله تعالى في الشهب وفي استراق الشياطين السمعَ : ﴿ ولقد زيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجُوماً للشياطينِ ﴾ فقد زعم هذا الطاعن أن أحداً لم يجد قطّ كوكباً خلا مكانه ، من سكان الصحاري والبحار ومن يراعي النجوم للاهتداء ، وقد ردّ الجاحظ أيضاً طعن هذا الطاعن إلى الجهل بالتعبير العربي ؛ فقد يُطلق في أسلوب العرب الكلّ ويراد الجزء « قد يحرّك الإنسان يده ، أو حاجبه ، أو إصبعه ، فتضاف تلك الحركة إلى كلّه ، فلا يشكُّون في أن الكلّ هو العامل لتلك الحركة . ومتى فَصَل شهابٌ من كوكب ، فأحرق وأضاء في جميع البلاد ؛ فقد حكم كلّ إنسان بإضافة ذلك الإحراق إلى ذلك الكوكب .. ولم يقل أحد إنه يجب في قوله : وجعلناها رجوماً للشياطين ، أنه يعني الجميع[٦٢] .. » .

ومن الواضح أن التصدي لردّ الشُّبَه والمطاعن عن النظم القرآني هو جانب آخر من جوانب الحديث عن الإعجاز ؛ لأنه إشعار بخلو كتاب الله من أي مغمز أو مطعن ، وأنه في الذروة العليا من التأليف والبيان ، وأنه ليس في طوق البشر أن يأتوا بسورة من مثله ، بَلْهَ أن يجدوا فيه مطعناً أو نقيصة .

---

(٦١) الحيوان : ٤ / ٢٧١ ـ ٢٧٢

(٦٢) الحيوان : ٦ / ٤٩٧، وانظر أمثلة أخرى في الحيوان : ٤ / ١٠٠، ٦ / ٢٧٢ . وفي رسالة الرد على النصارى . ضمن رسائل الجاحظ : ٣ / ٣٠٣ وما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعدُ ، فقد كان الجاحظ من السبّاقين إلى الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وقد ردّ هذا الإعجاز ـ كما رأينا ـ إلى نظمه البديع ، وتأليفه العجيب ، وتميُّزه بأسلوب فريد ، لايقدر على مثله أحد من فصحاء العرب وبلاغييهم . وإذا كان كتابه الخاص بنظم القرآن لم يصل إلينا فقد حاولنا ـ من خلال ماتبقى لدينا من آراء متناثرة ـ أن نكوِّن صورة عن فكرة الجاحظ عن الإعجاز ، ونظرته إلى نظمه البديع ، فوجدناه يتحدث عن تفرد القرآن بأسلوب جديد يخالف جميع طرائق التأليف التي عرفتها العرب ، فهو ليس شعراً ، ولا نثراً ، ولا مزدوجاً ، ولا سجعاً . ثم إن هذا النظم يتميز بحسن الصوغ ، وكمال الترتيب ، ودقة انتقاء الألفاظ ، وحسن اختيارها ، بحيث تكون أقدر على التعبير عن المعنى المراد ، ينبع ذلك من قدرة ، لايؤتاها أحد من البشر ، على التمييز بين دلالات الألفاظ المختلفة ، ومعرفة الفروق الدقيقة بين المترادفات منها . ومن ملامح التميز في هذا النظم القرآني جمال التصوير ، وروعة تشخيص المعاني في صور بيانية رائعة تبرزها وتجلّيها وتثير خيال السامع ، فيقع تحت تأثيرها وسحرها . وهو نظم لاخلل فيه ولا اضطراب ، ولا يستطيع طاعن ـ مهما جَهِدَ ـ أن يجد في هذا التأليف ثغرة .

ولسوف يسلك الحديث عن الإعجاز سبيل التطور ، وستكون فكرة النظم أبرز ماعرف في قضية الإعجاز ، وأكثره وجاهة ، وسبباً في وضع علم المعاني ، وطريقاً لعلم البيان ، وسيرتبط الحديث عنها بعبد القاهر الجرجاني ومن قبله القاضي عبد الجبار ، ولكن السبَّاق الأول هو الجاحظ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مصادر البحث

ـ الباقلاني

١ ـ إعجاز القرآن ، تحقيق أحمد صقر . دار المعارف بمصر : ١٩٦٣ م

ـ البلخي (أبو القاسم)

٢ ـ فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة

ـ الجاحظ

٣ ـ البيان والتبيين (١ ـ ٤) تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر : ١٩٧٥ م

٤ ـ الحيوان (١ ـ ٨) تحقيق عبد السلام هارون ، البابي الحلبي بمصر : ١٩٦٦ م

٥ ـ حجج النبوة ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بمصر : ١٩٧٩ م

٦ ـ خَلْق القرآن ، ضمن الرسائل

٧ ـ تفضيل النطق على الصمت . ضمن الرسائل

٨ ـ العثمانية . ضمن الرسائل

٩ ـ الوكلاء . ضمن الرسائل

١٠ ـ في المعلمين . ضمن الرسائل

١١ ـ الرد على النصارى . ضمن الرسائل

ـ الخياط (أبو الحسين)

١٢ ـ الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، تحقيق د . نيبرج ، القاهرة : ١٩٢٥ م

ـ ابن خلدون

١٣ ـ المقدمة ، دار الفكر ، بيروت : ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م

ـ السيوطي :

١٤ ـ الإتقان في علوم القرآن (١ ـ ٤) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة بمصر : ١٩٧٤ م

ـ القزويني :

١٥ ـ الإيضاح ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت : ١٩٧٥ م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net